مُحَمَّدُ الفاتِحُ

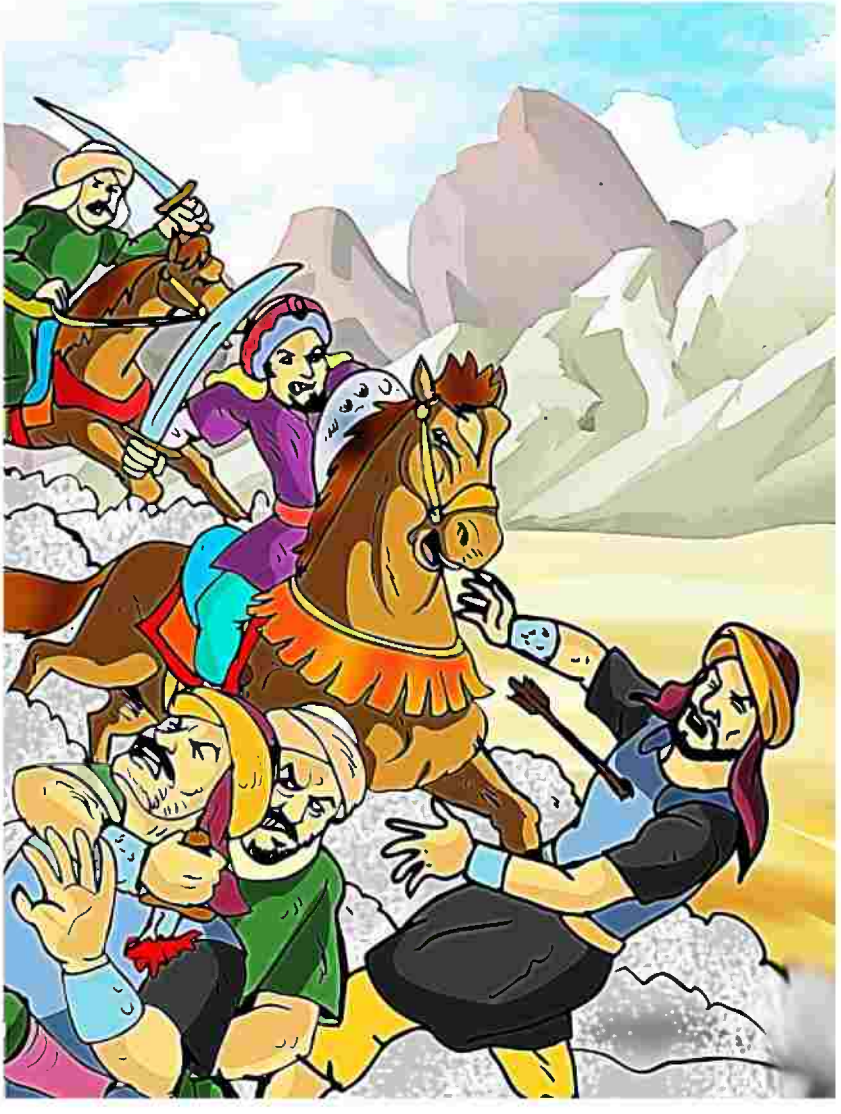

بَعْدَ سُقُوطِ الأَنْدَلُسِ، وانْهِيَارِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ، وسُقُوطِ دَوْلَةِ المَمَالِيكِ، شَاءَ اللهُ بإقَامَةِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، فَكَانَتْ عِزًا للإسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، وانْتَشَرَ الإسْلَامُ فِي الكَثِيرِ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ بَعْدَ أنْ فَتَحُوهَا، وقَضَوْا عَلَى الإمْبِرَاطُورِيَّاتِ المُسْتَبِّدَةِ، حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ، السُّلْطَانُ السَّابِعُ فِي سِلْسِلَةِ آلِ عُثْمَانَ، أعْظَمُ قَائِدٍ إسْلَامِيٍّ عُثْمَانِيٍّ فِي القُرُونِ الخَمْسَةِ الأَخِيرَةِ.

نَشْأَتُهُ:

اهْتَمَّ وَالِدُهُ السُّلْطَانُ مُرادُ الثَّانِي حَاكِمَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، بتَنْشِئَةِ وَلَدِهِ مُحَمَّدٍ نَشْأَةً دِينِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، فَأَحْضَرَ كِبَارَ العُلَمَاءِ، وتَعَهَّدُوا بوَلَدِهِ مُنْذُ الصِّغَرِ، فحَفِظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وتَعَلَّمَ أُصُولَ الفِقْهِ، وأُصُولَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فأصْبَحَ شَابًّا مُؤمِنًا مُلْتَزِمًا بِأَوَامِرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ونَوَاهِيهِ، وشَاعِرًا يُجِيدُ تَنْظِيمَ القَوَافِي، مُولَعًا بدِرَاسَةِ التَّارِيخِ.

كَانَ الشَّيْخُ "آقْ شَمْسُ الدِّينِ" صَاحَبَ الدَّوْرِ الأَكْبَرِ فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّةِ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ، زَرَعَ فِيهِ عِشْقَ الجِهَادِ،

شَأْنَهُ شَأنَ أبِيهِ وأجْدَادِهِ، وأوَحَى إلَيْهِ أنَّهُ المَقْصُودُ بحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، الَّذِي قَالَ فِيهِ: "لَتَفْتَحُنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ"، فأصْبَحَ فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ حُلْمًا يُرَاوِدُهُ لَيْلَ نَهَار.

تَوَلِّيهِ الحُكْم

وبَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ، تَوَلَّى مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ الحُكْمَ وعُمْرُهُ اثْنَانِ وعِشْرُونَ عَامًا، وبَدَأَ فِي تَرْتِيبِ جَبْهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ أوَّلًا، فَاهْتَمَّ بالعُلَمَاءِ والشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ والقُضَاةِ، وقَرَّبَهُم إلَيْهِ، ورَفَعَ قَدْرَهُم، وشَجَّعَهُم عَلَى العَمَلِ والإنْتَاجِ، كَمَا قَامَ بِبِنَاءِ المَدَارِسِ والمَعَاهِدِ، إيمَانًا مِنْهُ أنَّ الدَّوْلَةَ الصَّحِيحَةَ لَا تُقَامُ إلَّا بِالعِلْمِ، وتَوَسَّعَ فِي تَعْمِيرِ الأرْضِ حَوْلَهَ، فقَامَ بِبِنَاءِ المُدُنِ والمَسَاجِدِ والمُسْتَشْفَيَاتِ، كَمَا أعَطَى التِّجَارَةَ والصِّنَاعَةَ الكَثِيرَ مِنْ اهْتِمَامَاتِهِ.

ثُمَّ بَدَأ الاسْتِعْدَادُ لفَتْحِ مَا تَبَقَّى مِنْ آسْيَا والقُسْطَنْطِينِيَّةِ، حَتَّى تَكُونَ أمْلَاكِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ مُتَصِّلَةً ببَعْضِهَا، لَا تتَخَلَّلُهَا مُدُنٌ تَمُوجُ بالثُّورَاتِ والتَّمَرُّدِ عَلَيْهِ.

فَتْحُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ:

اعْتَنَى مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بالجَيْشِ جَيِّدًا، فدَفَعَ بَيْنَهُم عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ العُلَمَاءِ لتَقْوِيَّةِ العَزِيمَةِ، وقَامَ بتَدْرِيبِ الأفْرَادِ عَلَى فُنُونِ القِتَالِ تَدرِيبًا جَيِّدًا، بَعْدَ أنْ أعَدَّهُم مَعْنَوِيًّا، وغَرَسَ فِيهِم رُوحَ الجِهَادِ، وذَكَّرَهُم بثَنَاءِ النَّبِيِّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الجَيْشِ الَّذِي سَيَفْتَحُ القُسْطَنْطِينِيَّةَ، حَتَّى أصْبَحَ فَتْحُ هَذِهِ المَدِينَةِ حُلْمَ كُلِّ جُنْدِيٍّ عُثْمَانِيّ.

كَمَا قَامَ بتَقْوِيَّةِ السُّفُنِ البَحَرِيَّةِ، وزِيَادَةِ عَدَدِهَا، وأحْضَرَ مُهَنْدِسًا مَجَرِيًّا يُدْعَى "أورْبَان"، خَبِيرًا فِي صِنَاعَةِ المَدَافِعِ الحَرْبِيَّةِ الضَّخْمَةِ، وصَنَعَ لَهُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ المَدَافِعِ، والَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ وَقْتَهَا مِنَ الأسْلِحَةِ الخَطِيرَةِ فِي الحَرْبِ.

وقَبْلَ أنْ يتَحَرَّكَ بقُوَّاتِهِ، كَانَ عَلَيْهِ أنْ يَضْمَنَ عَدَمَ مَجِيءِ إمْدَادَاتٍ مِنَ البَحْرِ للقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فأقَامَ قَلْعَةً عِنْدَ أضْيَقِ مَكَانٍ عَلَى مَضِيقِ البُوسْفُورِ، مُقَابِلَ قَلْعَةٍ للدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وبِهَذَا أصْبَحَ هُوَ المُتَحَكِّمَ فِي مُرُورِ السُّفُنِ فِي المَضِيقِ، بَلْ فَرَضَ ضَرِيبَةً عَلَى كُلِّ سَفِينَةٍ تَمُرُّ مِنْ بَيْنِ القَلْعَتَيْنِ.

شَعَرَ إمْبرَاطُورُ الدَّوْلَةِ البِيزَنْطِيَّةِ بخُطُورَةِ هَذِهِ القَلْعَةِ، لأهَمِيَّتِهَا العَسْكَرِيَّةِ، فأرْسَلَ إلَى مُحَمَّدِ الفَاتِحِ رَسُولًا للتَّفَاوُضِ، وأبْدَى اسْتِعْدَادَهُ لِأنْ يَدْفَعَ الجِزْيَةَ الَّتِي يُحَدِّدُهَا مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ، مُقَابِلَ أنْ يَعُودَ عَنْ بِنَاءِ القَلْعَةِ. لَكِنَّ مُحَمَّدًا الفَاتِحَ رَفَضَ عَرْضَ الإمْبِرَاطُورِ البِيزَنْطِيِّ، وأصَرَّ عَلَى فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وإخْضَاعِهَا تَحْتَ سَيْطَرَةِ المُسْلِمِينَ. قَامَ بتَجْدِيدِ المُعَاهَدَاتِ مَعَ الدُّوَلِ المُجَاوِرَةِ، حَتَّى تَمَّ عَزْلُ القُسْطَنْطِينِيَّةِ عَنْ جِيرَانَهَا، إلَّا بَعْضِ الدُّوَلِ القَلِيلَةِ، والَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا شَوْكَةٌ فِي الحَرْبِ، فَقَامَ بفَتْحِهَا سَرِيعًا، ثُمَّ تَفَرَّغَ للقُسْطَنْطِينِيَّةِ. أرَادَ البِيزَنْطِيُّونَ وَقْفَ زَحْفَ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ بجَيْشِهِ، فأقَامُوا سَلَاسِلَ ضَخْمَةً فِي مَدْخَلِ المِينَاءِ، لِيَكُونَ حَائِلًا بَيْنَ سُفُنِ العُثْمَانِيِّينَ والقُسْطَنْطِينِيَّةِ.

عَبْقَرِيَتُهُ العَسْكَرِيَّةُ

لَكِنَّ مُحَمَّدًا الفَاتِحَ كَانَ عَقْلِيَّةً عَسْكَرِيَّةً فَذَّةً، اسْتَطَاعَ أنْ يَتَخطَّى هَذِهِ العَقَبَةَ، فقَامَ بتَمْهِيدِ الأرْضِ، ووَضَعَ عَلَيْهَا ألْوَاحًا خَشَبِيَّةً، بَعْدَ أنْ دَهَنَهَا بالزَّيْتِ والشَّحْمِ، ثُمَّ جَرَّ السُّفُنِ عَلَيْهَا بسُهُولَةٍ، حَتَّى تَخَطَّى هَذِهِ السَلَاسِلِ، ثُمَّ أعَادَ

السُّفُنَ إِلَىَ المِيَاهِ مَرَّةً أُخْرَىَ، فسَارَتِ السُّفُنُ، لتَسْتَكْمِلَ حِصَارَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ.

اسْتَيْقَظَ أَهَالِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ عَلَىَ حِصَارِ مَدِينَتِهِم، فتَعَجَّبُوا لجَيْشِ المُسْلِمِينَ الَّذِي تَخَطَّىَ هَذِهِ السَلَاسِلَ العِمْلَاقَةَ، ثُمَّ بَدَأُوا الدِّفَاعَ المُسْتَمِيتَ، فَكَانَتْ مَعْرَكَةً حَامِيَةً. وبَعْدَ حِصَارٍ دَامَ ٥٣ يَوْمًا، وبَعْدَ خَوْضِ مَعْرَكَةً دَامِيَةً، اُسْتُشْهِدَ فِيهَا الكَثِيرُ مِنَ الجَيْشِ العُثْمَانِيّ، اْسْتَطَاعَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ وجُنُودُهُ تَسَلَّقَ أسْوَارَ المَدِينَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ودَخَلَهَا وَسْطَ جُنْدِهِ وقُوَّادِهِ ، يُرَدِّدُونَ: مَا شَاءَ اللهُ! فالْتَفَتَ إِلَيْهِم وقَالَ: لَقَدْ أصْبَحْتُمْ فَاتِحِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ، الَّذِينَ أخْبَرَ عَنْهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وهَنَّأَهُم بالنَّصْرِ، ونَهَاهُمْ عَنِ القَتلِ، وأمَرَهُم بالرِّفْقِ بالنَّاسِ، والإحْسَانِ إِلَيْهِم. ثُمَّ تَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ، وسَجَدَ للهِ عَلَىَ الأَرْضِ شُكْرًا وحَمْدًا وتَوَاضُعًا.

ثُمَّ قَامَ وتَوَجَّهَ إِلَىَ كَنِيسَةِ آيَا صُوفْيا، الَّتِي اجْتَمَعَ بِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ ومَعَهُمُ القَسَاوِسَةُ والرُّهْبَانُ، يَتْلُونَ صَلَوَاتَهُم وأدْعِيَتَهُم. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أبْوابِهَا خَافَ

النَّصَارَى واخْتَبَئُوا دَاخِلَ الكَنِيسَةِ، فقَامَ أحَدُ الرُّهْبَانِ بفَتْحِ الأبْوابِ لَهُ، فطَلَبَ مِنَ الرَّاهِبِ تَهْدِئَةَ النَّاسِ وطَمْأنَتَهُم والعَوْدَةَ إلَى بُيُوتِهِم بأمَانٍ، فاطْمَأنَ النَّاسُ، وخَرَجُوا مُعْلِنِينَ إسْلَامَهُم، لَمَّا رَأوْا تَسَامُحَ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ وعَفْوِهِ.

اجْتَمَعَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بالقَسَاوِسَةِ، وأبْلَغَهُم بحُرِيَّةٍ إقَامَةِ الشَّعَائِرِ الخَاصَّةِ بِهِم، وفَرَضَ عَلَيْهِمُ الجِزْيَةَ، واتَّخَذَ نِصْفَ كَنائِسِ المَدِينَةِ مَسَاجِدَ للمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أعْلَنَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ عَاصِمَةً للدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ، وأطْلَقَ عَلَيْهَا إسْلَامْ بُولْ وهَكَذَا نَجَحَ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بِعَمَلٍ أُسْطَورِيٍّ، وباعْتِمَادٍ كَامِلٍ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وبعَزِيمَةٍ لا تَعْرِفُ اليَأسَ، وبإصْرَارٍ عَجِيبٍ عَلَى أنْ يَكُونَ هُوَ المَقْصُودَ بحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الَّذِي يُخْبِرُ فِيهِ عَنْ فَاتِحِ القُسْطَنْطِينِيَّة بِأنَّهُ "نِعْمَ الأمِيرُ"، وبأنَّ الجَيْشَ الَّذِي يَفْتَحُها "نِعْم الجَيْشُ"

فُتُوحَاتٌ أُخْرَى

لَمْ يَكْتَفِ مُحَمَّدٌ الفَاتِحُ بِهَذَا النَّصْرِ العَظِيمِ، بَلْ تَوَغَّلَ فِي الفُتُوحَاتِ، ففَتَحَ المَجَرَ والصِّرِبَ والبُوسْنَة وجُزُرَ اليُونَانِ وبِلَادًا أُخْرَى كَثِيرَةً. ثُمَّ تُوُفِّيَ عَنْ ثَلاثٍ وخَمْسِينَ سَنَةً، بَعْدَ ٣١ عَامًا هِيَ مُدَّةُ حُكْمِهِ، قَضَاهَا فِي حُرُوبٍ مُتَوَاصِلَةٍ للفَتْحِ وتَقْوِيَةِ الدَّوْلَةِ وتَعْمِيرِهَا، وأَتَمَّ فِي خِلَالِهَا مَقَاصِدَ أَجْدَادِهِ، ففَتَحَ القُسْطَنْطِينِيَّة وجَمِيعَ مَمَالِكِ وأَقَالِيمِ آسْيَا الصُّغْرَى والصِّرَب والبُشْنَاق وأَلْبَانْيَا، وحَقَّقَ كَثِيرًا مِنَ الإِنْجَازَاتِ الإِدَارِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي سَارَتْ بالدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى دَرْبِ الازْدِهَارِ.